رابطة العالم الإسلامي
الأمانة العامة
الإدارة العامة للمؤتمرات والمنظمات

المقومات الحضارية والإنسانية للثقافة الإسلامية

إعداد

الدكتور نابي بوعلي

قسم العلوم الاجتماعية - جامعة معسكر - الجزائر

مقدم إلى مؤتمر مكة المكرمة الخامس عشر

الثقافة الإسلامية.. الأصالة والمعاصرة

الذي تنظمه

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

٤ - ٦ / ذو الحجة / ١٤٣٥ هـ
٢٨ - ٣٠ / سبتمبر / ٢٠١٤ م

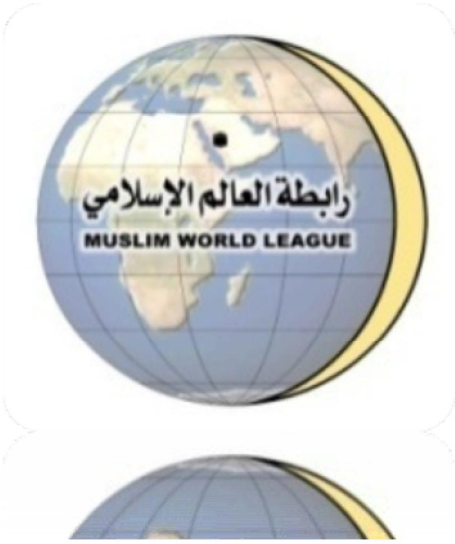

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية

صندوق البريد (٥٣٧) أو (٥٣٨) مكة المكرمة (٢١٩٥٥)

هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٥٦٠٠٩١٩- الفاكس: ٥٦٠١٣١٩-٥٦٠١٢٦٧

برقياً: رابطة - مكة، تلكس: ٥٤٠٠٠٩ و٥٤٠٣٩٠

www.themwl.org

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف النبيين والمرسلين، المثال الأكمل الذي تجسدت فيه هداية القرآن الكريم، وعلى آله وصحبه الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الحمد لله الذي شرف هذه الأمة بنعمة الإسلام، ورضيه لعباده ديناً، وجعلها خير أمة أخرجت للناس، بشهادة القرآن الكريم، وهي أشرف رسالة، وأعظم أمانة، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

يتحدد جوهر إشكالية هذا البحث؛ في أنه يبين فضل المقومات الحضارية والإنسانية للثقافة الإسلامية المستمدة من الدين الذي امتن الله به على عباده، في ظل التحديات التي تواجهها، وتنطلق فرضيته من أن شمولية تلك المقومات للثقافة الإسلامية التي استمدت وجودها من الإسلام وإليه انتسبت؛ هي التي جعلتها تصل إلى عقول وقلوب الناس في مختلف أنحاء العالم، وجعلتهم يدخلون في دين الله أفواجاً، لقد كان فضل تلك المقومات كبيراً حيث حَررت الناسَ من خرافة المعتقدات الوثنية، والتخلف الثقافي، وحطمت الأساطير المؤسسة للتفرقة العنصرية بين البشر، ونشرت منظومة قيم أخلاقية وحضارية يتقاطع فيها ما هو روحي مع ما هو مادي، في عالمٍ يحترم التنوع الثقافي للإنسان.

ولقد قسمتُ البحثَ إلى مقدمة تحتوي على الإشكالية والفرضيات والمفاهيم الأساس، وثلاثة فصول:

الفصل الأول بعنوان: الثقافة الإسلامية (المفهوم والمعطَى التاريخي).

والفصل الثاني بعنوان: المقومات الحضارية والإنسانية للثقافة الإسلامية.

والفصل الثالث بعنوان: أنماط تفعيل الثقافة الإسلامية لتأخذ دورها في الناس، وكذا دور وواجب الشعوب الإسلامية في الدفاع عنها.

وخاتمة تتضمن جملة من الاستنتاجات وبعض التوصيات.

أولاً: الثقافة الإسلامية (المفهوم والمعطى التاريخي)

تتكون الثقافة في معناها الإنثروبولوجي الواسع؛ من المعتقدات والنظم الاجتماعية والقيم والمعايير والمكتسَبات الموروثة التي تميز الأفراد والمجتمعات عن بعضها البعض، وقد عرَّفها تايلور بأنها: «ذلك الكل المركَّب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع»، وتشكل الثقافة في بُعدها التاريخي ومسارها التطوري؛ حصيلة جهود الشعوب وتجاربهم عبر الزمن، وبالتالي فهي تغتني بتجارب أهلها وتطلعاتهم لبناء حاضرهم ومستقبلهم، فهي مرجعية الأمة، تؤطِّر سلوك أفرادها، وتكيف حظوظهم، وتطبعهم بطابع خاص بما تحمله من قيم ومبادئ وتراث وإرادة عمل مشتركة تحدد واقع الأمة وإمكانياتها، وقد أكدت منظمة اليونسكو من خلال بيان مكسيكو للسياسات الثقافية هذا المعنى الشامل للثقافة بقولها: «الثقافة في معناها الأوسع جملة الصفات المميزة – روحية ومادية فكرية وعاطفية– التي تميز مجتمعاً أو كتلة اجتماعية زيادة على الفن والآداب، فهي تشمل صفات العيش والحقوق السياسية للبشر، وأنظمة القيم والعادات والمعتقدات، وهي التي تمنح الإنسان قدرته على التفكير في ذاته، وتجعل منا كائناتٍ تميز الإنسانية»[1].

(1) déclaration de MEXICO sur les politiques cultureles Conférence mondiales de l'Unesco mexico city du 16au26 Aout 1982 revue publication unesco1982 place fontemoy Paris.

ويبقى المصطلح واسع الدلالات؛ لأنه ينصب على الجوانب المادية والروحية، وكل منجزات الإنسان وإضافاته.

والأمة لا تسجل حضورها على خريطة الأمم وفي سجل الحضارات، إلا من خلال مظاهر ثقافتها: كالدين والعلم واللغة والتكنولوجيا وجملة الآداب والفنون وغيرها، وقوة ثقافتها هي التي تعرضها في المشهد العالمي أمام الأمم الأخرى، وما كان لنا أن نعرف الأمم والشعوب - السابقة أو المعاصرة لنا- إلا من خلال الاطلاع على تاريخ ثقافاتهم المتنوعة، والاحتكاك بهم والتفاعل معهم في تجربة الأخذ والعطاء، تأثراً وتأثيراً،كما أن الأمم الأخرى اطلعت على ثقافة المسلمين وعلومهم واستفادت منها واستثمرت كنوزها في بناء حضارتها، حيث كان «انتشار الإسلام وثقافته في الشرق الأقصى؛ مع حركة التجار التي كانت إحدى قنوات الاتصال المهمة، حيث نقل التجار المسلمون الكثير من مظاهر الثقافة الإسلامية إلى مختلف الشعوب في قارة آسيا وأفريقيا،كما انتشرت الثقافة عبر حركة الترجمة؛ حيث تُرجِمَتْ أمهات الكتب العربية والإسلامية إلى اللغات الأخرى في مختلف ميادين العلم والفلسفة في القرون الوسطى وعصر النهضة وبداية العصر الحديث، ولذا ظهر الأثر البارز للثقافة الإسلامية على غيرها، وقد شهد العديد من الباحثين والمفكرين الغربيين على ذلك الأثر القوي الذي أحدثته الثقافة الإسلامية، لكننا نلحظ في دراسة كثير من المستشرقين: التهميش والتجهيل والإنكار لمآثر العرب والمسلمين في العلوم والفلسفة، بسبب تلك الصورة المشوهة عن المسلم وثقافته؛ حتى أصبح الإسلام بموجبها عنصر جمود وتخلف في نظرهم، مع تجاهل إبداعاته»[(١)].

(١) المدخل إلى الثقافة الإسلامية، تأليف: د. خالد القاسم وآخرون، جامعة الملك سعود، ص٦.

ورغم أن التاريخ يؤكد على تفاعل الحضارات واحتكاك بعضها بالبعض مع اختلاف وتيرة ذلك الاحتكاك والتفاعل، إلا أن هناك معطياتٍ وخصوصياتٍ تميز كل حضارة، فالحضارة الغربية مثلاً تتميز بالإنتاج التقني، والأمر ذاته ينطبق على الحضارة الإسلامية، حيث يعود المعطى الثقافي للحضارة الإسلامية إلى المحددات القاعدية التي أقامها الدين الإسلامي تحت شعاره الإيماني التوحيدي: «لا إله إلا الله» في عهده الأول، يقول عزمي السيد طه أحمد: «الثقافة الإسلامية هي معرفة عملية مكتسَبة تنطوي على جانب معياري مستمَد من شريعة الإسلام ومؤسَّس على عقيدته، وتتجلى في سلوك الإنسان الواعي في تعامله في الحياة الاجتماعية مع الوجود (أو مع الخالق والمخلوقات)»[1].

والثقافة الإسلامية تُميز مجموعة بشرية تشكَّلت تاريخياً وتشترك في العقيدة (إله واحد، نبي واحد، كتاب واحد، قِبلة واحدة)،كما يجمعها التاريخ والمصير والعادات والتقاليد المشتركة؛ ووحدة الآلام والآمال والتكوين النفسي، وهذا النموذج يعد مرجعية تاريخية خاصة شكلت حضارة مستقلة ومتميزة هي «الحضارة الإسلامية»، امتدت قروناً من الزمن تعود إلى المعطَى الديني والتراث التاريخي الذي استطاع أن يشيِّد حضارة كاملة المعالم عبر التاريخ، وإن محاولة بناء مشروع حضاري إسلامي اليوم بعيداً عن البِنية الثقافية التي رسَّخها الإسلام ودعا المسلمين إلى التمسك بها، سيزيدنا تراجعاً وتقهقراً، ويُفقدنا القدرة على التحدي الحضاري والوعي بالقوى المحركة والدافعة للتاريخ، وبالتالي نفقد مفاتيح الحضارة، وهو ما يمهد الطريقَ نحو الاغتراب الثقافي بإفقار الهوية من مرجعياتها ومكوناتها الجوهرية.

---

(١) عزمي السيد طه أحمد، الثقافة الإسلامية والتحديات المعاصرة.

إننا اليوم في العالم الإسلامي بحاجة إلى وقفة طويلة وجادة مع الذات، لالتقاط الأنفاس بعد أن باعد التاريخ بيننا وبين تراثنا؛ وتراكمت علينا طبقات من التخلف والوهن النفسي والانكسار والضنك الحضاري، انعكست آثارها السلبية على المستوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وسبَّبَت التخلفَ الثقافي والتأخر العلمي، وهذه الصحوة المباركة لثقافتنا تُحتم علينا التوفيقَ بين التراث ومتطلبات الحضارة المعاصرة للعودة من جديد إلى حلَبة التاريخ، والدخول بقوة في أفق المعترَك الحضاري الراهن، ولكن هذا لا يتم إلا بالتساؤل عن إمكاناتنا ومقوماتنا التاريخية والثقافية والاجتماعية التي يمكنها أن تساير الرَّكْب الحضاري المعاصر، من أجل بَلورة وعْيٍ تاريخي ورؤية علمية موضوعية قادرة على تحليل وتشخيص ومواجهة التحديات الخطيرة التي فرضتها طبيعة المرحلة التي طبعت الألفية الثالثة من تاريخ البشرية، حيث تراجع المشروع الحضاري الإسلامي أمام المد الغربي الذي ألقى ثقله الاقتصادي على الدول الإسلامية وأحكم سيطرته على المحورين التقني والاقتصادي، بل ألقى ثقله الثقافي بكل حمولته المادية، يريد الإمساك بكل شيء في عالمٍ افتراضيٍّ تقلصت فيه مظاهر الخصوصية الثقافية، وتوسعت فيه الارتباطات وتكثَّفت الاتصالات، وتلاشت فكرة الحدود والحواجز التقليدية التي كانت تميز الأمم والشعوب عن بعضها البعض جغرافيًا وثقافيًا.

ثانياً: المقومات الأخلاقية والحضارية للثقافة الإسلامية

أ- المقومات الاخلاقية:

القيم الأخلاقية عنوان كمال الفرد وصلاح المجتمع، وتجاهلها هو أكبر أزمة يعاني منها الإنسان المعاصر الذي فقد المعنى والتوجه بسبب هذه الأزمة الأخلاقية الخطيرة، ولكن من بركات الإسلام وتعاليمه السمحة أنه يقف ضد التدهور الأخلاقي ومظاهر الانحطاط الفكري والتخلف الثقافي، بل إن الثقافة الإسلامية تستمد وجودها من إطارٍ مرجعي إسلامي ذي طبيعة قيمية أخلاقية بالدرجة الأولى، حيث قال الرسول ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ**»(١)، وذلك لأهميتها في حياة الفرد والمجتمع، كما اعتنت الثقافة الإسلامية بالتجربة الأخلاقية وجعلتها مقياس استقامة حياة الفرد والمجتمع والأمة قاطبة، ولذا كان تحصيلها مبدأ حياة الفرد ومحور وجوده وغاية سعادته. وكان القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة المصدرَين الأساسَين الملهِمَين للقيم الأخلاقية في الثقافة الإسلامية، حيث أرست هذه الأخيرةُ قواعدَ الصدق والبر والأمانة والأُخُوَّة والتعاون والوفاء والصبر والنصح والرحمة والحق والمساواة والعدل وغيرها من الفضائل الأخلاقية والكمالات النفسية، وكما قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، كما نظمت الحقوق والواجبات وأعطت كل ذي حق حقه، انطلاقا من أن جميع حقوق الإنسان

---

(١) رواه أحمد.

واحدة، والإنسان إنسان في أي مكان في العالم، وهو ما جعل الحياة الإنسانية ممكنة في الفضاء الاجتماعي وفي العلاقات العامة والخاصة، وعليه أن يحترم هذه القيم النبيلة التي تجسد إنسانيته وتحقق ماهيته، وأن يراعي ثقافة الاختلاف التي تُشعره بجماليات الاختلاف؛ وتعينه على إقامة جسور التعارف والتعاون مع الشعوب والأمم، بِغَضِّ النظر عن العِرق أو اللون أو الجنس أو الدين، وكم يكون المجتمع راقيًا إذا تمثَّل هذه الصفات الحميدة. إن النموذج الإسلامي مفتوح بقيمه الأخلاقية العالمية المطلقة، التي قلَّما جادت بها حضارةٌ من الحضارات في التاريخ، ولكن في الوقت نفسه يُحذر الإسلام من مخاطر تخلُّف القيم الأخلاقية وانحدارها، وما يتبعها من دمار وخراب يَضر بالتجربة الإنسانية وبحضارة الإنسان، لذا عمِل الإسلام على تحرير الإنسان من ضيق الأنانية القاتلة وحدود الفردية الخانقة، وجعل المسلم في أعلى الدرجات: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

إن المنظومة الثقافية الإسلامية التي تُبنى على قيم العدل والقسط، والرحمة والرأفة، والتعاون والتواد، والتبادل والتواصل، والتضامن والتسامح، وتجعل حقوق الإنسان محفوظة وكرامته مصونة؛ لابد أن توصف بالعالمية، وهو ما جعلها تمتد إلى عمق الثقافات الأخرى وتحظَى باحترام أولئك الذين يعترفون بفضلها عليهم؛ كالمستشرقة الألمانية زيغريد هونكة التي أكدت أن (شمس العرب تسطع على الغرب)، واعترفت بأن نجاح الدعوة الإسلامية يرجع إلى مستوى الحياة الأخلاقية في المجتمع الإسلامي، فالإسلام رسم منهجًا ربانيًا كانت البشرية في حاجة ماسة إليه، مما يشهد على عالمية هذا الدين وشريعته السمحة وسُمو أخلاقه وقيمه الروحية، وما قدمته الثقافة الإسلامية التي تجمع بين الأخلاق والعلم والعدل والرحمة وغيرها من القيم؛ كان تراثًا عريقًا أثرى

الثقافات الإنسانية ومثَّل شهادة حية في التاريخ على أصالة الثقافة الإسلامية وارتقائها نحو أسمى الفضائل، لأن الأخلاق في الإسلام منهج حياة كامل.

ب- المقومات الحضارية للثقافة الإسلامية

١ - ثقافة الحوار والتعارف الحضاري:

قبل الحديث عن ثقافة الحوار وآدابها، نشير إلى مقومات البناء الحضاري والقيم التي توجه ذلك البناء، فالإسلام يولي أهمية بالغة للقيم الحضارية؛ كالاستخلاف والمسؤولية والحرية والمساواة والعمل والأمن والسلام، وهي المقومات الأساس لتحقيق أي تقدم حضاري لصالح الإنسان.كما دعا إلى تأسيس أخلاقيات التواصل والحوار والتعارف الحضاري الحقيقي، الذي يحترم الإنسان وجوداً وتاريخاً وثقافة، ويعتبر التعارف الثقافي وآليات التواصل الحضاري بين الجماعات البشرية من صميم الدعوة الإسلامية لدعوة الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والتعرف على المشترك الإنساني والاستفادة منه لصالح الإنسان،كما أسس الإسلام لأخلاق التواصل الثقافي بين الشعوب والأمم، فرؤية الإسلام أن الإنسان مُطالَب بالتفاعل مع الآخر دون إكراه أو إقصاء أو تهميش: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

غير أن ما نراه اليوم أزمة أخلاقية، وأزمة حوار تترجم في لغة الحروب والتوترات؛ وتزايد المناطق الساخنة في العالم؛ واتساع دوائر الفقر وتزايد عدد الفقراء، وما يترتب عليها من تداعيات على حياة الإنسان ومستقبله، ويعتقد البعض أن تعقُّد المشاكل التي أفرزتها العولمة؛ هي التي استوجبت عودة الحوار من جديد لإشراك الجميع في تشكيل عالمنا المعاصر. ونظراً لحساسية الوضع؛

يمكن الجزم دون مبالغة أن أغلب التوجهات الفكرية اليوم تؤكد على أهمية الحوار وفعالية التواصل في صناعة مستقبل الأمم؛ وتحقيق الاستقرار والسلام العالمي وأمن الشعوب، وتلتقي هذه الرؤى مع مبادئ الرؤية الإسلامية في تأصيل الحوار كوسيلة للتواصل يعزز الثقافة المنفتحة والمتسامحة، وينبذ ثقافة الكراهية والإقصاء والتطرف من أجل إنقاذ مستقبل الإنسان، وإلا سيبقى العالم رهين الأطماع ومسرحاً للصراع الذي لا تجني منه البشرية إلا الثمار المُرة، ولنا في مآسي الماضي ما يغنينا عن كوارث الحاضر، فمظاهر الصراع والحروب تتعارض مع روح الإسلام ورسالته ومنهجه الوسطي، فالإسلام دين الوسطية عقيدة وشريعة وأخلاقاً بشهادة القرآن الكريم ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والإسلام لا صلة له بالعنف والتطرف والغلو، فالتطرف فكر غير قابل للحياة، والقيم الحضارية الإسلامية قامت على محاربة الروح العدوانية والتطرف والغلو، ودعت إلى الوسطية والاعتدال واحترام التنوع الثقافي والديني دون إكراه، ويشهد على ذلك اعترافات المفكرين الغربيين بأن الرسول ﷺ كان قدوة وأسوة وإماماً ومعلماً عظيماً، وأن البشرية في حاجة ماسة إلى رسالته للخلاص من متاعب الحضارة المادية، وهذه بعض شهادات غير المسلمين في محمد ﷺ:

- قال الكاتب الإيرلندي برناردشو: «إن العالم أحْوَج ما يكون إلى رجل في تفكير محمد، هذا النبي الذي وضع دينَه دائماً موضع الاحترام والإجلال، فإنه أقوى دين على هضم جميع المدنيات، خالد خلود الأبد، وإني أرى كثيراً من بني قومي قد دخلوا هذا الدين على بيِّنة، وسيجد هذا الدين مجاله الفسيح في هذه القارة (أوروبا)، إن رجال

الدين في القرون الوسطى - ونتيجةً للجهل أو التعصب- قد رسموا لدين محمد صورة قاتمة، لقد كانوا يعتبرونه عدواً للمسيحية، لكنّني اطلعتُ على أمر هذا الرجل، فوجدتُه أعجوبة خارقة، وتوصلتُ إلى أنه لم يكن عدوًّا للمسيحية، بل يجب أن يسمَّى منقذَ البشرية، وفي رأيي أنه لو تولى أمر العالم اليوم، لوُفِّق في حل مشكلاتنا بما يؤَمِّنُ السلامَ والسعادةَ التي يرنو البشر إليها»[1].

- يقول النمساوي د. شبرك: «إن البشرية لتفتخر بانتساب رَجلٍ كمحمدٍ إليها، إذ أنه رغم أُميته استطاع قبل بضعة عشر قرنـًا أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون، إذا توصلنا إلى قمته».

هذه الأقوال من أقوى الشهادات على أن المسلمين صدَّروا للعالم ثقافة أصيلة تحمل كل المعالم والأبعاد الإنسانية والأخلاقية والحضارية، ولكن: كيف يمكن ممارسة الحوار اليوم في جوٍّ مشحون بالصراع والخوف المتبادل؟

إن أفضلَ الأساليب التي تواجه بها الأخطار أسلوبُ الحوار وقبول الآخر حتى ولو اختلفنا معه، على أن نضعه في أجواء الحوار ليهدأ عن عصبيته وخلفياته العقائدية، فالحوار يعمل على تبديد الحواجز وإزالة الأوهام، وبه حاور النبي ﷺ المشركين والكفار وحتى المنافقين وقادة الدول المستبدين، مترسمًا الأسلوب القرآني في الانفتاح على الآخر وعرض الأفكار من غير عصبية أو إقصاء، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤].

(1) http://www.alsiraj.net/opinion/html/page08.html

إن ثقافة الحوار هي تدبير الاختلاف بين أهل الفكر والخبرة، ومن هنا ظلت الرؤية الإسلامية تعترف بأهمية الحوار وبآثاره الايجابية وفوائده الكبيرة على جميع أطراف الحوار، المسؤولين والملتزمين بمبادئه ومقاصده وأهدافه، ولذلك كرست ثقافة الحوار كمنهج إنساني ومطلب حضاري وضرورة وجودية،كما جعلت التعارف الحضاري أساساً من أسس الرسالة العالمية للإسلام، أما ثقافة الصدام والكراهية فهي مضادة لروح الثقافة الإسلامية مناقضة لها، لأن الإسلام دعا إلى السلْم ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الأنفال: ٦١]، ودعا إلى التعارف الحضاري ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقد تجسدت عالمية الثقافة الإسلامية في تنوع وتعدد المِلل والنِّحَل التي عاشت تحت مظلة الإسلام الطاهرة وعلى أرض المسلمين المباركة، وهو ما شكَّل مصدر قوة وثراء للمجتمع الإسلامي الذي أنجز حضارةً انتشرت في زمن قياسي في مشارق الأرض ومغاربها بعد الفتوحات الإسلامية. إن الحوار أسلوب حضاري ووسيلة فعالة لتجاوز مظاهر الاختلاف والاحتقان، وإنهاء التشاجر والانتهاء إلى الحلول المرضية، ولا يتم ذلك إلا بالتحلي بآداب البحث وأساليب المناظرة في تقصي الحقائق، واحتكام أطراف النزاع إلى الصواب بالحجة والبرهان، وتجنب التعصب للرأي المبني على الرؤية المتصلبة، والنسق الفكري المغلق، والقرآن الكريم يشير إلى أن الحوار هو أمضى سلاح في يد الإنسان للتواصل مع الآخر، كقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

لقد استوعب المسلمون الروح الحوارية وتشبعوا بها منذ فجر الدعوة الإسلامية المبكرة، أسوة بالرسول الأكرم ﷺ الذي علمهم ثقافة الحوار وحسن الإنصات للآخر، ففي غياب الحوار كيف يلتقي الناس؟ وكيف يتواصلون ويتعاونون؟

يقول إبراهيم العاتي: ودأَب الرسول الكريم ﷺ على الحوار مع قومه الذين ناصبوه العداء فدعاهم إلى نبذ عبادة الأوثان، والامتناع عن سفك الدم الحرام ووأد البنات، والتمسك بمكارم الأخلاق، وكل ما يؤسس للمجتمع السليم والسلوك القويم، سائراً على هدي الآية الكريمة ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]، والتي تحدد فلسفة الحوار في الإسلام؛ التي تقر بوجود الآخر المخالف، وتفتح معه باب النقاش العقلي للوصول إلى (كلمة سواء) دون إكراه، إننا اليوم بحاجة إلى استلهام الدروس من ديننا وتاريخنا الإسلامي المجيد وثقافتنا العريقة، إذ بالعودة إلى ذلك التاريخ نتذكر مآثر وخصال الرعيل الأول من الصحابة رضي الله عنهم، الذين حملوا رسالة الإسلام، وتخرَّج منهم أبطال حقيقيون من مدرسة الرسول ﷺ، اندفعوا نحو الإسلام الذي غيَّر مجرى حياتهم وكان ثورة عظيمة على مظاهر الجهل والشرك والفوضى والفساد، لقد مارس طلائع المسلمين ثقافة الحوار وعلموها لغيرهم، وانتصروا للدعوة الإسلامية بمحاورة أهل الديانات والثقافات المخالفة والذود عن الإسلام، فأحسنوا الذب بإظهار الحجة الصحيحة، وإثبات الحق، وتسفيه آراء المبتدعة المنحرفين والمشككين في حقيقة هذا الدين، وواجهوا التحديات منذ بداية نزول الوحي على محمد ﷺ، فقد ناصب المشركون العداء للرسول ﷺ وحاولوا قتل الدين بقتله، ودبروا له المكائد

الفاشلة، ثم هجَّروه قسراً من مكة المكرمة إلى المدينة من أجل وأد الدين الجديد، ولكن الله سبحانه وتعالى نصر دينه فقال: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف: ٨]، ورغم التهجير والحروب التي شنها المشركون على المسلمين ظلماً وعدواناً، ورغم كل أشكال التضييق التي عانوا منها طويلاً، إلا أنهم بلَّغوا الرسالة، وتوسعَتْ على أيديهم دائرةُ الفتوحات الإسلامية، وطرقوا أبوابَ الإمبراطوريات الجبارة، وشعارهم في ذلك: «الحوار منهج لتبليغ رسالة الإسلام»، فأقبل الناس على هذا الدين الجديد أفواجاً، لأنه ينسجم مع الفطرة الإنسانية السليمة؛ ويستجيب لتطلعات الإنسان المادية والروحية، حيث خلَّصهم من عبادة الدُّمَى والتماثيل والأوثان وصنوف الضلال، وأخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

وبتوجيهات الرسول ﷺ مارَسَ المسلمون الحوارَ انطلاقاً من النصوص القرآنية، فكانت حضارتُهم حضارةَ حوار، أشادت بِدوره ومقاصده، وقررت أنه الفعل المؤسس لكل تقدم إنساني، ولذلك غلب الحوار الفكري والجدل العقلي على كل المذاهب الفقهية والمدارس الفكرية والفرق الكلامية ومناظرات الشعراء والمؤرخين وعلماء اللغة والنحو والمنطق وغيرها، سواء بين المسلمين، أو بين المسلمين وغيرهم، مما يؤكد بالحجة والبرهان أنهم لم يكونوا أهل فكر متعصب أو منغلق أو متطرف كما يُنسب إليهم ظلماً وافتراءً، فقد تحاوروا مع مختلف الشعوب، واستوعبوا حضاراتهم وأضافوا إليها إسهامات مشرقة في جميع العلوم والتخصصات، بل تجاوزوها إلى النقد والتأسيس والإبداع.

٢- ثقافة تحترم حقوق الإنسان وتصونها:

فقد أقرت الشريعة الإسلامية للإنسان حقوقًا، ودعت إلى تثبيتها والدفاع عنها، وكرَّستها في الواقع الملموس وفي العلاقات بين الناس، وذلك قبل منظمات حقوق الإنسان والدساتير والمواثيق المعتمدة في الدول الحديثة؛ التي كانت ولا تزال تنتهك حرمة حقوق الإنسان دون حسيب ولا رقيب، وتمارس عليه أبشع أنواع الظلم والقهر.

إن حقوق الإنسان في الإسلام جزء لا يتجزأ من جوهر الدين الإسلامي الحنيف، فرعايتُها عبادة، والدفاع عنها واجب، والسكوت عن انتهاكها جريمة، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من واجبات الحياة الإيمانية عند المسلمين: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، إذ كرَّم اللهُ الإنسانَ وجعله أفضل مخلوقاته لحكمة إلهية لا يعلمها إلا هو، ودعا الإسلام إلى تدعيم حقوق الإنسان وحمايتها والتصدي لكل الانتهاكات التي يتعرض لها، ولو احتُرمت القيم السامية والحقوق التي جاء بها الدين الإسلامي؛ لما بقيت مظاهر الغَبن واستعباد البشر لبعضهم البعض، ولَساد الأمن والأمان والاستقرار وعمَّت السكينة، لقد كان الميلاد الحقيقي لحقوق الإنسان والتأصيل الأبدي لها في بُعدها العقائدي والثقافي والروحي مرتبطًا برسالة الإسلام، رغم أن هذا الموضوع يحتل اليومَ مساحةً كبيرة من حالات الاستقطاب التي تحركها دوافع سياسية واقتصادية بعيدة عن الغايات الإنسانية السامية التي شكَّلت هَمّ الإنسان ورغبته في الأمن وفي حياة حرة كريمة، وقد كرَّست الديانات السماوية حقوقَ الإنسان وحرصت على حمايتها من عبث العابثين، كما عزَّزت التحولاتُ التاريخية والفكرية والثوراتُ التي شهِدَتها أوروبا منذ عصر النهضة مروراً بعصر

الأنوار وفكر الحداثة ونظريات التقدم؛ الإقرار بعالمية حقوق الإنسان، ثم الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٠ من ديسمبر ١٩٤٨م، الذي كان تتويجاً للمسار الطويل الشاق من النضال والتضحيات ضد كل ما هو لا إنساني ومضاد للطبيعة البشرية.

ولما تنامت في عصرنا حركات التطرف والتوترات واتخذت شكلاً دموياً من خلال المواجهة المسلحة التي فَرضت واقعاً جديداً على المجتمع الدولي، كان من الضروري إعادة طرح تساؤل مشروع يجول بالأذهان عن هذه الحالة المربكة، التي تضع مستقبل البشرية أمام تحدٍّ خطير يتمثل في فشلها في تأمين حقوق الإنسان وتعزيزها على أرض الواقع، لضمان السلام للشعوب المقهورة التي لها حق الوجود كغيرها من شعوب الأرض، والتي تبخَّر حُلمُها في إقامة سلام أبدي، وفشلت الآليات المعتمَدة في حماية حقوق الإنسان التي ظلت تُنتهك على مرأىً ومَسمع من العالم، وهو ما يؤكد فرَضية تَدهور أوضاع حقوق الإنسان في العالم، وتَواصُل انتهاكها، والانتقائية والانحياز في تطبيق القانون، وتشير التقارير الصادرة عن الهيئات والمنظمات الدولية إلى حقائق مُروعة عن أوضاع حقوق الإنسان في العالم المعاصر، وطبيعي أن انتهاك تلك الحقوق سيكون له تداعيات خطيرة على وضع الإنسان والمجتمع، وبالتالي على الأمن والاستقرار العالمي، ومن المفارقات العجيبة في عالمنا المعاصر: كثرة الحديث عن حقوق الإنسان من خلال اتساع منابر حقوق الإنسان، وتزايد المعاهدات الأممية التي تحمي تلك الحقوق المدنية والسياسية والاجتماعية، والدعوة إلى ثقافة المواطَنة والديمقراطية واتساع دوائر حرية التعبير من الاتصال والتواصل؛ في الوقت الذي يُنتهك فيه أغلى حق من حقوق الإنسان وهو حق الحياة؛ بفعل المجازر والحروب التي تولدت عن التطور الأسطوري للرأسمال المادي،

واتساع هيمنة النظام الليبرالي، وظل الغرب يحتكر الحديث عن تقديم النماذج في مجال السياسة والاقتصاد والتقنية والعلوم، فيقدم لدول العالم نموذج الديمقراطية وتجربة الحداثة وحقوق الإنسان وحقوق المرأة والطفل وحقوق الحيوان والنبات، ويحاول عولمة النموذج الغربي باعتباره النموذج الأخير للتطور الحضاري، لكنه في الحقيقة أدخل البشريةَ في دوامة من الحروب وسلسة من الأزمات الاقتصادية المتتالية، وغيَّب روحَ الاهتمام بتنمية ملَكات الإنسان وقدراته واحترام كرامته، وحوّلها إلى رقم حسابي وكائن استهلاكي، وأضحى الجسد مركز الثقافة الغربية ومحورها الرئيس، وعليه يمكن القولُ إن الدين الإسلامي يقدم النموذج الحضاري الراقي لتمثل حقوق الإنسان، فقد حمل الإسلام من خلال رسالته الكونية؛ قيم العدل والحب والتسامح والمساواة والحرية والكرامة رحمة للجنس البشري، إيمانًا منه بأن حقوق الإنسان تمارسها ذاتٌ إنسانيةٌ حاملةٌ لكل مقومات الوجود الإنساني الرافض لأي اغتراب، تلك المقومات توفر الإطار المناسب لبناء حياة اجتماعية مستقرة آمنة، يتعرف فيها الإنسان على نفسه ويَنعم فيها بمعنى الحياة، بعدما عانَى الكثيرَ من مظاهر القهر وألوان الهوان ومظاهر التخلف والمرض التي تمنع تفتُّح شخصيته ونموها وتكاملها، ولذلك جسَّدتِ الثقافةُ الإسلامية أبعاد الحضارة العالمية الإنسانية التي تحترم حقوق الإنسان وتحميها، ومن هنا تُحقق الثقافة الإسلامية البُعدَ الإسلامي الذي يؤسس للعالمية الفعلية التي تُبنى أساسًا على رفض استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وتصون كرامته وتحفظ حقوقه، فهذا البعد الديني هو الذي جعل الإنسان محور الحياة فكرَّمه الله سبحانه وتعالى على سائر المخلوقات.

ثالثاً: أنماط تفعيل الثقافة الإسلامية

بالنظر إلى حجم الدول الإسلامية أرضاً وشعوباً وتاريخاً وثروات مادية ضخمة، يحق لنا التساؤل اليوم عن كيفية تفعيل الثقافة الإسلامية لتأخذ دورها في الناس؟ ويمكن تحيين تجربة الثقافة الإسلامية في الفضاء الثقافي العالمي من أجل التصدي لظاهرة غياب التكافؤ في العلاقات الثقافية الدولية، ولسنا في حاجة للتدليل على العمق الحضاري للثقافة الإسلامية، ولا بصدد الحديث عن فضل الحضارة الإسلامية على غيرها من الحضارات الأخرى، لأن ذلك أمر بدَهي بالرغم من تشويه المغرضين وأعداء الدين للثقافة الإسلامية؛ حسداً من عند أنفسهم، وإنما نحن بصدد البحث عن الآليات لتفعيل الثقافة الإسلامية وتحيينها لتحتل مركز الثقل في المستقبل، بفعل الحجم التي تحتله من العالم على مختلف المقاييس والأبعاد مهما حاولت الحضارات المادية تقزيمها، وما يستدعي الاهتمامَ بتفعيل الثقافة الإسلامية والتعزيز الفاعل لها: التحديات الكبيرة لظاهرة العولمة ومضاعفاتها باعتبارها تشكُّلات ثقافية جديدة وخطيرة، ليست على الإطلاق مجرد عناصر ثقافية عابرة، أو احتكاك ثقافي بسيط لا تمس مطلقاً بجوهر الثقافة الإسلامية كما يظن البعض، وإنما تمثل تحدياً حقيقياً أمام الثقافة الإسلامية وتمس بهويتها، وخطاب العولمة يحاول إجراء عملية تحويل جذري وعميق للتجربة البشرية، وهو ما تؤكده الهجمة الواسعة للعولمة الغربية التي تخترق كل شيء مما يؤدي إلى دمْجٍ تدريجي للثقافات، وبشكلٍ تصاعدي لصالح نمطٍ ثقافي يريد تعويمَ العالم فيه من أجل تذويب واحتواء كلِّ الثقافات، إنه فعل اغتصاب ثقافي كما وصفه «طيب تيزيني»، بالإضافة إلى التحديات العسكرية والحركة الصهيونية والغزو الثقافي وحركات التنصير، من هنا يأتي الحديث عن التحديات الكبيرة من منظور قراءات نقد الحضارة التي

ترفض العولمة المتوحشة التي تقتلع الإنسان من جذوره وهويته وكل معالم شخصيته، بل تسعى إلى تغيير فهمه للدين الإسلامي، وإعادة تشكيل صورة أخرى تتناسب مع طروحاتها الجديدة من أجل إعادة ترتيب البيت العالمي لصالح الكبار، وتذويب الخاص في الكلي، والمحلي في العالمي، ولكن ما هي المرتكزات التي نرتكز عليها لتفعيل الثقافة الإسلامية في فضاء الثقافة العالمية؟

المرتكز الأول: عالمية الثقافة الإسلامية

بالرغم من أن القرآن الكريم كتابٌ عربيٌّ، إلا أن الخطاب الذي يحمله ينزع إلى التعميم والشمولية، ويتوجه إلى الناس كافة دون تحديد لهوية أو قومية أو جهة معينة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، لقد كانت الثقافة الإسلامية فرصة لالتقاء البعد الروحي في الإنسان بالبعد المادي بعدما أهملته الثقافاتُ الوثنيةُ السابقةُ على الإسلام، والأمر ينسحب أيضاً على الثقافات المادية المعاصرة التي ألقت بالإنسان في قلب الإعصار التقني المادي، وتجاهلت الأبعاد الروحية والإنسانية والقيم الأخلاقية داخل نسيج الحضارة، وتركته يتخبط في مِحن لا نهاية لها، بينما الثقافة الإسلامية تسعى لتحقيق أهداف شريفة ونبيلة ليس للمسلمين فحسب، وإنما للإنسانية قاطبة، وتقف ضد التطرف وأشكال العنف المادي والرمزي، إذ منذ بداية الدعوة الإسلامية، ساد خطاب الوحدة والتوحد والإخاء والتكافل والتراحم والتعاون والتضامن، وبذلك اتخذت الثقافة الإسلامية طابع العالمية ابتداء من الفتوحات الإسلامية الأُولى، حيث توسعت دائرة الدعوة الإسلامية خاصة في محورها الثقافي، وهي عالمية استمدت جوهرها من بعدها التاريخي، وتمسكت بأصالتها المتفتحة باستمرار، ثقافة تعمل على التوفيق بين متطلبات الأصالة

والمعاصرة، واليوم تتعالى الأصوات من داخل الحضارة الغربية نفسها تشير إلى أُفولها، وأجمعت تلك الأصوات على أن الحضارة الغربية تعيش حالةَ المرض والقلق والأزمة والاحتضار، وهي أزمة البشرية الأوروبية التي فقدت المعنى والتوجه، وبهذا تقدم الثقافة الإسلامية نفسها بإرثها الحضاري بديلاً؛ مدعومة بِدين نوراني يدعو إلى التفكر والتدبر وتعزيز السلْم، وإشاعة المحبة وبث روح الوئام بين الناس جميعاً على اختلاف دياناتهم وتنوع ثقافاتهم.

المرتكَز الثاني: انفتاح الثقافة الإسلامية على الثقافات الأخرى

لا شك أن عالمنا مقسم إلى مساحات ثقافية متباينة تتوزع فيها شعوب حسب الهوية والانتماء، ولذلك قيل قديماً: الإنسان في طبيعته واحد وتفرقه الثقافة، وعلى النقيض من الثقافات التي تمركزت حول ذاتها، أو الثقافات ضيقة الانتشار، أو الثقافات المحلية؛ فإن الثقافة الإسلامية انتشرت بسرعة في بقاع العالم وفي زمن قياسي، حاملة قيم الحرية وحقوق الإنسان والأخلاق السامية للحق والعدل والسلام والخير، عبر الدعوة انطلاقاً من وسطية المنهج والفكر التي أوصانا بها القرآن الكريم، ومن خلال الدعوة بالتي هي أحسن دون الانزلاق إلى مظاهر العنف والتطرف والغلو الغريبة عن الثقافة الإسلامية الأصيلة، وقد سلكت سياسة الانفتاح على الثقافات الأخرى مبدأ: «لكم دينكم ولي دين» ، ولم تكن تقصد هدم القيم واستبدالها أو استدراج الشعوب نحو الدخول في الإسلام قهراً، بل جعلت الثقافة الإسلامية مهمة بناء مجتمع إنساني على أسس سليمة استناداً إلى قيم الوحي من أهم أولوياتها، والمتتبع للتاريخ الإسلامي يدرك أنها ثقافة فاعلة في جميع مناحي الحياة، أحدثت انقلاباً جذرياً في تصورات الإنسان للإله الخالق؛ والكون المخلوق، ونقلته من مجتمع قبلي يعبد الأوثان والتماثيل إلى عبادة الله خالق كل شيء، في إطار تنظيم مثالي للحياة

الاجتماعية والسياسية والروحية والفكرية، هكذا صارت الثقافة الإسلامية بحكم طابعها الكوني والعالمي والإنساني تراثاً حضارياً للبشرية جمعاء، من خلال التأصيل لمبادئ حقوق الإنسان واحترام الآخر وتثبيت أركان الحق والعدل ونشر الفضيلة ومكارم الأخلاق، مما أهَّلها لرفع التحديات التي واجهتها من خلال صياغة استيراتيجية قادرة على تحمُّل التصادم مع الثقافات الأخرى، ونحن اليوم نعيش نفس التحديات وبشكل أكثر حدة في مواجهة العولمة في محورها الثقافي؛ التي تحاول استبدالَ منظومة القيم الإسلامية، وعولمةَ القيم الثقافية الغربية، ومحاربةَ قيمنا الأصيلة من أجل زرع منظومة قيمية غريبة عنا؛ شديدة الخطورة على مستقبلنا، إن قيمنا الأخلاقية العالمية الأصيلة والمتأصلة والرفيعة هي المصفاة لسلامة حياتنا، والسياج الواقي الذي يحمينا ويحصننا من متاهات العولمة الزاحفة، وإذا كانت العولمة «قد شكَّلت تهديداً ضِمنياً وصريحاً للثقافات الوطنية، لكن هذا التهديد وهذه المخاطر تتضاعف بصورة مخيفة عندما يتعلق الأمر بالثقافات المستهدفة؛ كالثقافة العربية الإسلامية التي تشهد هجمة تاريخية يَندر مثيلُها في تاريخ الصراع الثقافي على امتداد الزمن»[1]، فالثقافة الإسلامية تعمل على تعزيز السلْم في المجتمعات المسلمة أولاً، والمجتمع الإنساني ثانياً، وتجعل ذلك واجباً دينياً وإنسانياً، وهو مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية، لكونه ضرورةً قصوى وشرطاً للتقدم الحضاري، والنبي ﷺ كان صادقاً في نشر ثقافة السلْم وتحقيق العدل والمساواة بين الناس، ولم يكن يعمل من أجل الإنسان المسلم دون غيره، بل كان خطابه موجهاً للناس دون استثناء، فعبارته الشريفة تدل على

(١) انظر: على أسعد وطفة ومحمد العبد الغفور: الثقافة العربية الإسلامية إزاء تحديات العولمة وفرصها.

ذلك: «ليبلغ الشاهدُ منكم الغائبَ»، إن الثقافة الإسلامية ثقافة سلام، والسلام أمر له مكانته في الإسلام، ولا شك أن ما يعيشه الإنسان اليوم من أزمات وتصدعات وتمزقات بسبب التطورات السريعة للعلم وتوجهاته اللاإنسانية، بالإضافة إلى الأزمات الاقتصادية المرعبة، وما يترتب عنها من أزمات معقدة وخطيرة، يؤكد حاجة العالم إلى السلام العادل في حياة الناس، ويستدعي قراءة متجددة تضمن استلهام الحلول لمعضلات الواقع وأمراضه، وهذا لا يتم إلا بتفعيل المنجز الثقافي الصحيح في حاضر الإنسان.

المرتكز الثالث: تكوين إطارات دينية قادرة على تصحيح صورة الثقافة الإسلامية

العلم مرتكز الحضارة وأساس بنائها، ومن هنا أولت الثقافة الإسلامية عنايةً خاصة للعلم والعلماء، وحثت على طلب العلم ومجالسة العلماء، وهذا ليس غريبًا عن الدين الإسلامي الذي جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم، وأمر الناسَ بالتفكر والتدبر في مخلوقات الله، لأن المعرفة تعمق الإيمان ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]، وأول آية نزلت من القرآن الكريم أمرت الرسولَ ﷺ بالقراءة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]، وقد انتبه علماء الغرب إلى هذا المقوم الأساس الذي قامت عليه الثقافة الإسلامية، حيث تقول المستشرقة الألمانية الدكتورة زيغريد هونكه: «لقد أوصى محمد كلَّ مؤمن- رجلًا كان أو امرأة- بطلب العلم، وجعل ذلك واجبًا دينيًا، ويرشد أتباعه دائمًا إلى هذا، فيخبرهم بأن ثواب التعلم كثواب الصيام،

وأن ثواب تعليمه كثواب الصلاة، وكان ﷺ يرى في تعمق أتباعه في دراسة المخلوقات وعجائبها؛ وسيلة التعرف على قدرة الخالق، وكان يرى أن المعرفة تنير طريق الإنسان»[1].

من هنا لا بد من تنشيط الحركة العلمية والبحث عن استيراتيجية ثقافية للعالم الإسلامي، وآليات لتفعيلها، مثل التركيز على نشاط المراكز الثقافية والمؤسسات العلمية خارج الديار الإسلامية لتوسيع حظوظ انتشار الثقافة الإسلامية والتعريف بها، مع رصد اعتمادات مالية كافية من أجل إنجاح العملية، لقد صار العلم في عالمنا أبَ الثروة وأساسَ التحكم في دواليب الاقتصاد، فهو مَن ولد أوروبا وليست أوروبا مَن ولدته، وإن التكيف مع التحولات في عالمنا المعاصر يتطلب تقديمَ خطابٍ ديني بعيدٍ عن الغلو والتطرف، ولا يكون ذلك ممكناً إلا بالعودة إلى الإسلام بقيمه الروحية والأخلاقية والإنسانية، وهذا ما يستدعي تصحيح الصورة المشوهة والمغلوطة التي لحقت بالدين بسبب الفهم الساذج والأمية الدينية، وانتشار خطاب التكفير لدى الجماعات المتطرفة التي انحرفت عن روح الإسلام الذي يدعو إلى التسامح والتعاون وينبذ التعصب والتطرف حتى في العبادة، وذلك بالرجوع إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والسيرة العطرة للرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم الذين يمثلون الثقافة الإسلامية في نقائها وصفائها خير تمثيل، وإن تجديد الخطاب سيتجاوز أسطورةَ مركزيةِ الغرب، وسيكون قادراً على مواجهة الصورة النمطية والمشوهة والحملات المشبوهة التي يُصر أعداء الإسلام على تذكيرنا بها بمناسبة وبغير مناسبة، وهي صورة يغذيها الحقد الدفين ضد الإسلام

(1) http://www.akhbarona.com/writers/78989.html

والمسلمين، والتي تعمقت في زمن العولمة التي تسعى للهيمنة الثقافية وشطب جميع الثقافات من الوجود وإفنائها لصالح قطبية الثقافة الغربية، إن تنشيط الحركة العلمية يقتضي أيضاً استغلال وسائل الإعلام وتوظيف مواقع التواصل الاجتماعي لتقوم بواجباتها في الحفاظ على الهوية ودعمها، وإثراء الثقافة الإسلامية للحضارة العالمية، والنضال ضد الحياة المندمجة والمنمطة التي تفرضها العولمة التي تسحق بقية الثقافات الأخرى وتبعثر المسار الخاص لتطور المجتمعات بإحداث ضروب الفوضى، والثقافة الإسلامية تزخر بإرث ثقافي غرسه الإسلام، وبخصوصيات علمية وثقافية من الطراز العالمي؛ مثَّلت الفضاء الحضاري الإسلامي حتى في عصور ما سمي بالانحطاط، فلابد إذن من حماية هذا التراث الثقافي الإسلامي وتصنيفه إرثاً حضارياً لفائدة البشرية.

الخاتمة

الأمة الإسلامية بثقافتها الربانية الأصيلة تتسامى إلى أعالي الحياة، وإن إحياء كنوزها العريقة والمتأصلة في التاريخ؛ سيمنحنا مكانة وسلطاناً بين أمم الأرض، هذه الثقافة هي حاجة الإنسانية وكمال الفرد وصلاح الجماعة، بما تحمله من قيم نورانية منفتحة تحترم الإنسانَ وتعمل على تحقيق المساواة للجميع؛ انطلاقاً من عقيدة الوحي، ولذلك فهي تقدم خدمة جليلة ليس للمسلمين فقط، بل للبشرية جمعاء، ولقد ظلت هذه القيم الحضارية والإنسانية رسالة مفتوحة إلى الأبد، تنير الطريق ولا يزيغ عنها إلا هالك، وإن إبراز الأبعاد الحضارية السامية للثقافة الإسلامية التي كرَّسها الإسلام والتي تجعل من الإنسان قيمة عليا، هو الذي سيجعل الثقافات الأخرى تنظر بإكبار وإجلال واحترام لهذا الدين الحنيف الذي كرَّم الإنسانَ وفضَّله على سائر المخلوقات الأخرى، وبلغت درجة تكريمه أن جعله الله خليفته في الأرض وأمر الملائكة بالسجود له ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤]، والأمل الذي يسكن أرواحنا هو الذي نستقبل به فجر كل يوم جديد من أيام الله لبناء غد أفضل لنا وللبشرية جمعاء، في عالم أكثر عدالة واحتراماً لتنوع الثقافات، يسوده التكافل والتراحم والأمن والسلام بين الشعوب، وإن الأمة الإسلامية ستتصدر منارة العلم والثقافة العالمية وتعزز مكانتها العالمية وحضورها الكوني بإذن الله، لأنها أمة موعودة عقائدياً بالنصر من الله، بشرط تقوية الصلة بالله سبحانه وتعالى واليقين بنصره للمؤمنين على أعدائهم الذين لم يتوقفوا لحظة عن تقديم صورة سلبية ومشوهة عن حضارة القرآن وثقافة المسلمين، وإظهارهم بمظهر العجز الحضاري والتخلف المادي والفكري، لتقزيم الوجود الإسلامي بكل الوسائل المادية والمعنوية رغبة في التفرد في السيطرة على العالم: ﴿ وَدَّ

كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وإن التحديات والمخططات الكبيرة التي تواجه أمة الإسلام لن تنال من دين الله، ففي القرآن الكريم آيات كثيرة جعلها الله بشرى للمسلمين ونصراً مؤزراً ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٤-٦]، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]، ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف: ١٣].

التوصيات

- توسيع نشاط المراكز الثقافية خارج الديار الإسلامية لتوسيع حظوظ انتشار الثقافة الإسلامية والتعريف بها.
- ضرورة وضع استراتيجية ثقافية تتناسب مع طبيعة التحديات الخارجية الناجمة عن مضاعفات العولمة.
- تقوية وسائل الإعلام للتعاطي إيجابياً مع نوعية المعلومة، والقيام بوظيفتها في الحفاظ على الهوية الثقافية.
- إدراج مكونات الثقافة الإسلامية مثل اللغة العربية ضمن المؤسسات والإدارات الحكومية.
- إعداد برامج ومناهج التربية والتعليم على وجه العموم انطلاقاً من مكونات الثقافة الإسلامية.
- تطوير البحوث العلمية باللغة العربية، وتشجيع الباحثين لإرساء تقاليد الاعتراف باللغة العربية كلغة عالمية.
- استثمار مواقع التواصل الاجتماعي للتعريف بالثقافة الإسلامية.
- ضرورة توظيف الإمكانيات العلمية والتقنية الحديثة لخدمة الثقافة والوحدة الإسلامية كمقدمة أساسية وضرورية، وذلك لتهيئة الثقافة الإسلامية لخوض معركة العولمة باقتدار وأصالة.